المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/namajournal.v10i3.565

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 27-9-2025
تاريخ القبول: 1-12-2025

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في علوم الوحي والدراسات الإنسانية

ديانتي

جون رولز

ترجمة:

محمد الأشهب[1]

mohamlachhab@gmail.com

الملخص:

يُقدم جون رولز في هذه المقالة شذرات من سيرته الذاتية في تقاطعها مع شق من مشروعه في الفلسفة السياسية. تدور هذه الشذرات حول بعض الأحداث التي عاشها وعاصرها مثل مشاركته مع الجيش الأمريكي على الجبهة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية، والمحرقة اليهودية (الهولوكوست). وقد كان لهذه الأحداث بالإضافة إلى قراءاته وتكوينه الأكاديمي في قسم الفلسفة بجامعة برنستون دورًا حاسمًا في فقدانه لإيمانه التقليدي بعدما عجز هذا الأخير عن حمايته من شكوكه العميقة حول معنى الشر والعدالة والتسامح. بينما يتفاعل القسم الآخر من المقالة مع مشروعه في الليبرالية السياسية، الذي دافع فيه عن تعددية المذاهب الشاملة المعقولة، من حيث حقها في الوجود داخل الديمقراطيات الليبرالية الدستورية، وحقها في الإسهام في قضايا العقل العمومي . كما يطرح في نهاية المقالة بعض العناوين الإشكالية التي تنتمي إلى دائرة ابستيمولوجيا وفلسفة الدين.

الكلمات المفتاحية:

حرية الضمير، الليبرالية السياسية، التسامح، العقل العمومي، الأديان المعقولة.

(1) باحث في الفلسفة السياسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، جامعة الحسن الثاني، المغرب.

للاقتباس: رولز، جون، ديانتي، ترجمة: محمد الأشهب، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج10، ع3، 2026، 246-257.

© نُشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص بتنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان ما إذا أُجريت عليه أي تعديلات، ولا يجوز استخدام هذا البحث لأغراض تجارية

OPEN ACCESS
Received: 2025-9-27
Accepted: 2025-12-1

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

On My Religion

John Rawls

Translated by: Mohamed Lachhab[2]

mohamlachhab@gmail.com

Abstract:

This article intertwines fragments of John Rawls's autobiography with elements of his philosophical project, focusing on formative experiences such as his service on the Japanese front during World War II and his confrontation with the reality of the Holocaust. These events, together with his philosophical training at Princeton, profoundly shaped his intellectual trajectory, leading to the abandonment of his traditional faith as he grappled with questions of evil, justice, and tolerance. The discussion then shifts to his political liberalism, where Rawls defended the legitimacy of diverse comprehensive doctrines within constitutional democracies and their right to participate in public reason. The article concludes by raising further epistemological and theological questions, situating Rawls's personal reflections alongside his broader philosophical commitment to pluralism and the moral foundations of liberal democracy.

Keywords:

Freedom of Conscience, Political Liberalism, Tolerance, Common Sense, Reasonable Religions.

(2) Researcher in Political Philosophy, Faculty of Letters and Human Sciences, Mohammedia, Hassan II University, Morocco.

Cite this article as: Rawls, John, "On My Religion," translated by Mohammed Al-Ashhab, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 10, issue 3, 2026, 228-239.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read, and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

مقدمة المترجم

تَنْسب جمهرة من الباحثين المعاصرين في الفلسفة السياسية إلى الفيلسوف الأمريكي جون رولز (1921-2002) فضل نقل هذا الحقل الفلسفي من أطراف الأكاديمية الفلسفية إلى مركزها. وهو الفضل الذي يبدو أكثر جلاء في السياق الأنكلوساكسوني، الذي اشتهر لعقود من القرن العشرين بهيمنة الفلسفة التحليلية التي كان مدارها الأساس حول القضايا اللغوية والمنطقية. كما يُرجع الدارسون إلى كتابه المؤسس نظرية في العدالة فضلَ بعث النظرية التعاقدية من مرقدها بصيغة جديدة، بعد سيطرة **وضعية** postivism لأكثر من قرن على مباحث السياسة والأخلاق والقانون. وقد اعتُبر عن حق أول من نَقد بعمقٍ وشموليةٍ الفلسفةَ النفعية، وقدم مشروعا بديلًا أُدرج تحت مسمى الليبرالية المساواتية.

في علاقة رولز بالدين سيلاحظ القارئ لمتنه أنه يخص **حرية الضمير** بعناية واهتمام خاصين في مشروعه، ولعل من مؤشرات هذه المكانة:

_ حضور هذه الحرية ضمن قائمة الحريات الأساسية التي لا يمكن لأي مصلحة اقتصادية أن تبرر التضحية بها من طرف مجتمع الديمقراطية الليبرالية الدستورية.

_ ومن زاوية أنَّ احترام الأفراد وتقديرهم لذواتهم يستلزم تمتعهم بالحق في اختيار ما يناسبهم من تصورات للخير بعيدا عن قمع السلطة السياسية ودكتاتورية الأغلبية، وفي إطار مبادئ العدالة.

_ ومن جهة تأكيده على الدور التاريخي الهام للحروب الدينية والإصلاح الديني في ظهور الليبرالية.

سيتساءل جون رولز في الليبرالية السياسية عما إذا كان في مقدور الديمقراطية الليبرالية الدستورية التي تنظم مجتمعا تعدديا في تصوره الخير، أن تكون مستقرة ليس فقط **باعتبارها تسوية مؤقتة**، بل انطلاقًا من التزام أخلاقي راسخ؟

يعتبر رولز أنَّ الاختلافات حول الدين والحياة الطيبة اختلافات قوية، ومن غير المعقول الاعتقاد بأنها نتيجة أخطاء من النوع الذي يمكن تبديده بالحجج العقلانية. ومن ثم سيكون وصم التعددية **المعقولة** بالكارثة بمثابة وصم لممارسة العقل في ظل ظروف الحرية بالوصم نفسه. إنَّ العقلاء، الذين يستخدمون قدراتهم العقلية قدر استطاعتهم في ظل ظروف الحرية، يتخذون مواقف مختلفة فيما يتعلق بهذه المسائل. وعلى ضوء واقع التعددية والاعتراف بأعباء الحكم يتوقع رولز أن المواطن المتحلي بخاصية المعقولية لن يسعى إلى فرض عقيدته الشاملة من خلال القانون. لذلك سيقترح رولز في الليبرالية السياسية أن تُبنى هذه القيم في سياق سياسي، بوصفها أجزاء من تصور سياسي «مستقل»

يحمل، بلا شك، مضمونًا أخلاقيًّا عميقًا، ولكنه لا يعتمد في محتواه أو تبريره على عقائد ميتافيزيقية أو إبستيمولوجية أو دينية لا يُمكن أن تكون محط تقاسم بين المواطنين. وقد جادل رولز متفائلًا بأنَّ الاتجاهات **السائدة** داخل الأديان والمذاهب الرئيسة (الكاثوليكية بعد مجمع الفاتيكان الثاني، والبروتستانتية، واليهودية، والإسلام) تتسم بالمعقولية النظرية فضلًا عن التزامها الأخلاقي بالإنصاف والمعاملة بالمثل تجاه المواطنين ذوي المعتقدات المختلفة. إنَّها قادرة على أن تُنجز إجماعًا متقاطعًا على مبدأ أخلاقي قوامه الاحترام، يمكن تطبيقه بطرق مختلفة لاهوتيًّا وابستيمولوجيا؛ وهو ما يعني في المحصلة قدرتها على دعم التصور السياسي المستقل الذي تقترحه الليبرالية السياسية لرولز.

يحاجج رولز أنَّ أفضل جواب على مطلب مذاهب الخير المعقولة (ومن بينها الأديان) بحقها في المساهمة في قضايا العقل العمومي هو المقاربة الإدماجية لا النزعة الإقصائية، لأنَّ الأولى أكثر مرونة بالقدر الذي يسمح للمواطنين بتطوير التصور السياسي بطرق مختلفة حسب ما يتطلبه السياق، شريطة أن يفعلوا ذلك بطرق تُعزز مُثُلَ العقل العمومي نفسه.

تُعد مقالة رولز التي نقلناها إلى اللسان العربي تحت عنوان ديانتي[3]، من أواخر ما خطت يداه، ولم ينشرها قيد حياته، ولا هو أوصى بنشرها.

تقدم هذه المقالة الموجزة لمحةً عن تجربة رولز الدينية، وتحولاتها، والعوامل والأحداث والشخصيات **المساهمة** في هذا التحول، وموقفه الليبرالي من الدين من جهة الدفاع عن حرية الضمير ورفض توظيف السلطة السياسية للدولة في نبذ تعددية الخير واضطهاد الضمير، ومن جهة الاعتراف بقيمة المذاهب الدينية الشاملة المعقولة في قبول وتعزيز التصور السياسي الذي اقترحه في الليبرالية السياسية من أجل مجتمع حسن التنظيم، يتمتع بالاستقرار لأسباب وجيهة.

* ختامًا أتقدم بالشكر الجزيل إلى د. إلياس بوزغاية (أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله)، ود. سعيد بنتاجر (أستاذ المنطق ومناهج البحث بجامعة الحسن الثاني) على ملاحظاتهما واقتراحاتهما القَيمة التي ساهمت في تحسين مضامين هذه الترجمة.

(3) أنهى جون رولز كتابة هذه المقالة البيان سنة 1997، وقد عمل تلميذاه طوماس ناجيل وجوشوا كوهين على نشرها بعد سبع سنوات من وفاة أستاذهما (2002) كملحق لبحثه الذي أنجزه ضمن مقررات الحصول على شهادة البكالوريوس من قسم الفلسفة بجامعة برينستون سنة 1942، وعنوانه: بحث موجز في معنى الخطيئة والإيمان، وهو من تحرير طوماس ناجيل، وتقديم جوشوا كوهين وطوماس ناجيل، وتعليق طوماس ناجيل وجوشوا كوهين وروبرت ميرهو آدمز. ضمن منشورات جامعة هارفارد، سنة 2009. **تقع هذه المقالة الملحقة في حوالي ثمان صفحات من 261 إلى 269.**

John Rawls, A Brief Inquiry into the Meaning of Sin and Faith, With «On My Religion» Edited by Thomas Nagel, Harvard University Press, 2009. p 261-269 ...pp

[النص المترجم]

النشأة الدينية وعوامل التحول الديني

إنَّ ديانتي شأن يخصني وحدي، فمراحلها المختلفة وتسلسلها لم تكن غريبة أو ذات فائدة خاصة. وُلدت في عائلة متدينة تقليديًا؛ كانت أمي أسقفية[4]، وأبي ميثوديًا جنوبيًا[5]، لكنهما كانا يذهبان معًا إلى الكنيسة الأسقفية في بالتيمور Baltimore[6]. لم أشعر قط أنَّ لأحدهما تدينًا يتجاوز الطابع النمطي. وأنا أيضًا كنت متدينًا على هذا المنوال حتى آخر عامين لي في برينستون.

ثم تغيّر الأمر؛ إذ أصبحت مهتمًا بعمق باللاهوت ومذاهبه- مثل الطرق المختلفة لتصور الثالوث، وكيف يمكن لمفهوم يبدو غامضًا إلى هذا الحد أن يعبر عن أشكال متعددة من المسيحية. حتى أنني فكرت في الالتحاق بالمعهد اللاهوتي، لكنني قررت الانتظار حتى نهاية الحرب: لم أستطع إقناع نفسي أن دوافعي كانت صادقة، كما شعرت أن عليّ الخدمة في الجيش مثلما فعل أصدقائي وزملائي. استمرت هذه المرحلة معظم سنوات الحرب، لكنها تغيّرت في العام الأخير منها تقريبًا. ومنذ ذلك الحين، لم أعد أصف نفسي بالأرثوذكسية، وهو وصف غامض بما يكفي، إذ إن آرائي لم تبقَ ثابتة.

لطالما تساءلت عن سبب تغيّر معتقداتي الدينية خلال الحرب تحديدًا. بدأت مسيحيًّا أسقفيًّا أرثوذكسيًّا[7]، ثم تخلّيت عن ذلك تمامًا بحلول يونيو 1945. لا أدّعي أنني أفهم لماذا تغيّرت معتقداتي، ولا أظن أنه يمكن استيعاب مثل هذه التحولات كليًّا. يمكننا أن نسجّل ما حدث، ونروي القصص، ونطرح التخمينات، لكنها تبقى كذلك: محض تخمينات.

ثلاث حوادث راسخة في ذاكرتي: سلسلة جبال كيلي؛ وفاة ديكون؛ وسماع أخبار الهولوكوست

---

(4) بمعنى أنها تابعة للكنيسة الأسقفية (Episcopal Church) التي كانت تمثل بدورها امتدادا للكنيسة الأنجليكانية من جهة العقيدة والتنظيم، لكنها استقلت عنها تنظيميًّا، إبان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية بيد أنها بقيت تابعة لها عقديًّا، وهي عضو في الطائفة الأنجليكانية العالمية. اشتهرت الأسقفية بمناهضة العبودية وعقوبة الإعدام، وتأييد مطالب حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية، وتولية المرأة مناصب دينية، فضلًا عن دفاعها عن حقوق المثليين، بل ومباركة زواج قساوسة مثليين من داخلها. (المترجم).

(5) نسبة إلى الكنيسة الميثودية وهي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر على يد جون ويزلي، وهي تؤمن على العكس من عقيدة الاصطفاء القدري للكالفينية (the doctrine of predestination) بمبدأ أن الخلاص متاح للجميع، وتستمد جذورها الثيولوجية من المصلح اللاهوتي البروتستانتي الهولندي جاكوب أرمينيوس، المتوفى في بدايات القرن 17م. (المترجم).

(6) إحدى أهم مدن ولاية ميريلاند الأمريكية.

(7) أي موقف لاهوتي داخل الكنيسة الأسقفية يتمسك بالعقيدة القويمة كما كرسها التقليد «السلف»، وبهذا المعنى لا تكون الأرثوذكسية طائفة مستقلة بل هي عابرة لمذاهب وعقائد مختلفة بما فيها المذهب الأرثوذكسي المسيحي نفسه. (المترجم).

والتفكير فيه.

الحادثة الأولى وقعت في ديسمبر 1944. بعد أن أنهت السرية »ف" من الفوج 128 بالفرقة 32 معركتها للاستيلاء على سلسلة جبال مشرفة على بلدة ليمون في ليتي، بقيت في مواقعها. في أحد الأيام، جاء قس لوثري وألقى أثناء خدمته عظة قصيرة قال فيها إن الإله يوجّه رصاصنا إلى اليابانيين بينما يحمينا من رصاصهم. لا أعلم لماذا أثار ذلك غضبي، لكنّه فعلَ. وبّخت القس، وهو برتبة ملازم أول، على قوله ما يعرف جيّدًا أنه زيف حول العناية الإلهية. فما السبب سوى محاولته مواساة الجنود؟ لكن العقيدة المسيحية لا ينبغي أن تُستخدم لهذا الغرض، رغم أنّني كنت أعلم أنها تُستخدم كذلك.

الحادثة الثانية كانت وفاة ديكون في مايو 1945، على درب فيلا فيردي في لوزون. كان ديكون رجلًا رائعًا، صرت صديقًا له وشاركته الخيمة في الفوج. جاء الرقيب الأول يطلب متطوعين: أحدهما ليرافق العقيد ليتفقد مواقع اليابانيين، والآخر للتبرع بالدم لجندي مصاب. اتفقنا، وكانت النتيجة متوقفة على فصيلة الدم. بما أن فصيلتي مناسبة، ذهبت للتبرع، وذهب ديكون مع العقيد. لا بُدَّ أن اليابانيين رصدوهما، إذ انهالت 150 قذيفة هاون على موقعهما. احتميا بخندق، لكن قذيفة أصابته مباشرة فقُتلا في الحال. غمرتني كآبة عميقة، وظل المشهد يلاحقني طويلًا. لا أعلم لماذا هزني الأمر بهذا الشكل، سوى محبتي لديكون، رغم أنَّ الموت كان أمرًا مألوفًا في الحرب.

أما الحادثة الثالثة، فهي أكثر من مجرد حادثة؛ إذ استمرت طويلًا. بدأت في أسينغان في أبريل، حيث كان الفوج يستريح من القتال ويستقبل تعزيزات. كنا نذهب مساءً لمشاهدة أفلام الجيش، وكانت تتخللها تقارير إخبارية من جهاز الاستخبارات العسكرية. هناك سمعت لأول مرة عن الهولوكوست، مع وصول تقارير عن اكتشاف القوات الأمريكية لمعسكرات الاعتقال. ورغم أنَّ الكثير كان معروفًا من قبل، إلا أنه لم يكن متداولًا بين الجنود في الجبهة. هذه الحوادث، وخاصة الأخيرة، جعلتني أتساءل: هل الصلاة ممكنة حقًا؟ كيف يمكنني أنَّ أدعو الإله من أجلي أو من أجل عائلتي أو بلدي، بينما لم يُنقذ ملايين اليهود من هتلر؟ عندما فسّر لنكولن[8] الحرب الأهلية بأنها عقاب إلهي على خطيئة العبودية التي ارتكبها الشمال والجنوب معًا، بدا الإله عادلًا. لكن الهولوكوست لا يمكن تفسيره بهذا الشكل، وكل محاولة لتفسيره كذلك بدت لي بشعة وشريرة. إذا كان التاريخ تعبيرًا عن إرادة الإله، فلا بُدَّ أن تتوافق إرادته مع أبسط مفاهيم العدالة التي نعرفها. وماذا يمكن أنْ تكون العدالة الأساسية غير

(8) أبراهام لينكون، هو الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، من الحزب الجمهوري، اشتهر بالتعديل الثالث عشر للدستور الأمريكي (Thirteenth Amendment to the United States Constitution)، والذي بفضله ألغي الرق والعبودية، وبسببه اندلعت الحرب الأهلية، وقد اغتيل سنة 1865 بعد نهاية الحرب الأهلية. (المترجم).

ذلك؟ لذلك رفضت سريعًا فكرة سيادة الإرادة الإلهية، ورأيتها هي الأخرى بشعة وشريرة.
في السنوات التالية، رفضتُ المزيد من العقائد المسيحية حتى غدت غريبة عني. كانت مشكلاتي أخلاقية دائمًا، إذ إنَّ إيماني بالإله لم يتزعزع بفعل الشكوك حول وجوده. أما ما يُسمى ببراهين وجود الإله عند توما الأكويني وغيرِه فلم يكن ذا قيمة دينية قط. لكن المسائل الأخلاقية والعدالة كما تُطرح في العقائد المسيحية بدت لي مختلفة. صرت أرى كثيرًا منها خاطئًا أخلاقيًّا، بل ومقززًا أحيانًا: كعقيدة الخطيئة الأصلية، والجنة والنار، والخلاص بالإيمان الصحيح، والقبول الأعمى لسلطة الكهنة. أما عقيدة القدر، وخاصة القدر المزدوج[9] كما صاغه أوغسطين وكالفن، فبدت لي مرعبة إلى أبعدِ حدٍّ. ومع أنني وجدت آثارها عند توما الأكويني ولوثر أيضًا، إلا أنها في النهاية نتيجة منطقية لفكرة القدر نفسها. صارت هذه العقائد بالنسبة لي غير ممكنة التصديق، لا لضعف الأدلة، بل لأنها تُظهر الإله كوحش لا يحرّكه سوى قدرته ومجده. كما لو أن بشرًا بائسين ومشوّهين مثلنا قادرون على تمجيد أي شيء! بدأتُ أعتقد أيضًا أن قلة من الناس يقبلون هذه العقائد حقًا أو حتى يفهمونها. بالنسبة لهم، الدين هو تقليد بحت، وهو يمنحهم السكينة والعزاء في الأوقات الصعبة.

منزلة حرية الضمير بعد التحول الديني

في سنوات ما بعد الحرب، اهتممت بتاريخ محاكم التفتيش في العصر الوسيط بقراءة أجزاء من أعمال هنري ليا Henry Charles Lea[10] ووجهات نظر لورد أكتون Lord Acton حول فساد السلطة الدينية الذي لا يقل عما يعتري السلطة السياسية من فساد[11]. بدا لي أن لعنة المسيحية الكبرى هي اضطهاد المخالفين ووصمهم بالهرطقة، منذ إيرينيوس[12] وترتليان[13]. وهذا أمر جديد بالمقارنة مع الديانات اليونانية والرومانية التي كانت مدنية الطابع، تزرع الولاء للمدينة أو الإمبراطور، لكنها تترك للمجتمع المدني فسحة من الحرية، حيث تتعايش أديان مختلفة. أما الكنيسة، فارتبطت بالسلطة

(9) أي أن الله اصطفى بعض الأفراد للخلاص، واختار بعضهم الآخر ليحق عليه الهلاك. (المترجم)
(10) مؤرخ أمريكي (1825-1909). اهتم بدراسة العصر الوسيط الأوروبي وخاصة محاكم التفتيش الإسبانية. (المترجم)
(11) جون إميريتش إدوارد دالبرغ أكتون، سياسي ومؤرخ إنجليزي، (1834-1902)، اشتهر بمقولته: « تميل السلطة لأن تُفسد، والسلطة المطلقة تُفسد بصورة مطلقة». «Power tends to corrupt, and absolute power corrupts absolutely". (المترجم)
(12) القديس إرينيوس هو أحد أشهر آباء الكنيسة الأوائل، عاش في القرن الثاني ميلادي، ارتبط اسمه بالحرب اللاهوتية على الهرطقة، ومن أهم أعماله: ضد الهرطقات (Adversus Haereses).
(13) من كبار اللاهوتيين في المرحلة الآبائية، عاش بين النصف الثاني من القرن الثاني ميلادي والنصف الأول من القرن الثالث ميلادي، ومثله مثل إرينيوس اشتهر بجدله مع «الهراطقة»، من أعماله: رسالة إلى الأمميين الوثنيين، والرد على اليهود.

السياسية لتفرض هيمنتها وتقمع الأديان الأخرى. ولأنها دين خلاص أبدي يتطلب إيمانًا حقيقيًّا، رأت الكنيسة أنها تمتلك ما يسوغ قمعها للهرطقة. ومن ثم، رأيت أن إنكار الحرية الدينية وحرية الضمير شر عظيم، وجعلني ذلك أرفض ادعاء العصمة البابوية. صحيحٌ أن الكنيسة لا تدّعي العصمة إلا في مسائل الإيمان والأخلاق؛ فالمبدأ لا يَنُص على أن البابا بحسبانه إنسانا معصوم[14]، بل على أن الإله سيضمن ألا يقول هذا الرجل كذبًا بوصفه البابا. لكن إذا لم تكن الحرية الدينية وحرية الضمير من صميم مسائل الإيمان والأخلاق، فما الذي يمكن أن يكون كذلك؟ صارت هذه الحريات Freedoms and Liberties[15] ثوابت في اقتناعاتي الأخلاقية والسياسية، وأسست فيما بعد لرؤيتي للديمقراطية الدستورية القائمة على فصل الدين عن الدولة.

إلى هذا الحد، بدا لي أن المسيحية، إذا أُخذت على محمل الجد، قد تترك أثرًا ضارًا في شخصية المرء[16]. فهي ديانة فردية: كل إنسان يُخلَّص أو يُدان وحده، مما يدفعنا للتركيز على خلاصنا الشخصي أكثر من أي شيء آخر. في حين أنه في الواقع، ورغم استحالة ألا نهتم بأنفسنا، على الأقل إلى حدٍّ ما -وهذا ما يجب علينا فعله- فإن روحنا الفردية وخلاصها لا يُشكلان مع ذلك أهمية تُذكر بالنسبة للصورة الأوسع للحياة المتحضرة، وغالبا ما نُدرك ذلك. وهكذا، ما مدى أهمية أن أُخلَّص مقارنةً بالمخاطرة بحياتي لاغتيال هتلر، لو أتيحت لي الفرصة؟ ليس الأمر مُهمًا على الإطلاق. بالتأكيد، يجب

(14) أي لا عصمة له في الأمور شخصية. (المترجم)

(15) هناك من يستعمل المفهومين من جهة الترادف، لكن هناك من يقيم تمييزات بينهما حيث قد يُستعمل مفهوم Freedom بمعنى خاص في معرض الحديث عن الحرية بمعناها الجواني -مثل حرية التفكير، حرية الاعتقاد، حرية الضمير- في إشارة إلى قدرة الشخص على التحكم في عالمه الداخلي على صعيد التفكير والاعتقاد، دون شريك له في هذا التحكم من جهة خارجية، كما قد يعني بمعناه العام فعل كل ما يرغب المرء في فعله مع القدرة على الفعل وهو ما يشمل الفكر والسلوك.
أما مفهوم Liberty فيكتسب معنى سياسي وسوسيولوجي حيث تتحدد مساحة التصرف بمقدار ما تمنحه القوانين وتسمح به، أي أنها حرية آتية من الخارج مثل حرية التنظيم والتظاهر والتعبير وهنا يكون التلازم بين الحق والواجب (الحرية المسؤولة) حيث يجري تنظيم هذه الحرية –الحق- بما لا يلحق الضرر بحقوق الآخرين. إذا كان السياق ليبراليًّا ديمقراطيًّا كانت مساحة الحرية وضماناتها المؤسساتية أكبر، وكلما اتجهنا نحو السلطوية تقلصت هذه الحريات، إلى أن تختفي مع الأنظمة الشمولية، دون أن تختفي بالضرورة حرية التفكير وحرية الضمير اللذان ينتميان إلى العالم الجواني للإنسان إلا عندما يقترنان جوهريا بطقوس وممارسات فردية أو جماعية علنية. في اللسان العربي يغطي مفهوم الحرية المعنيين معا. (المترجم)

(16) يذكرنا هذا الرأي بفكرة جون ستيوارت ميل في كتابه عن الحرية والقائلة بأن التسامح الديني لا يسود إلا في المجتمعات التي لا تأخذ معتقداتها على محمل الجد، أي التي تعيش لامبالاة دينية. religious indifference. بيد أنَّ الفرق بينهما هو فرق بين العام والخاص حيث يخص رولز المسيحية بحكمه هذا بينما يشمل حكم ج. س. ميل. الأديان عمومًا. (المترجم)
انظر:
John Stuart Mill, On Liberty, Edited by David Bromwich and George Kateb with essays by Jean Bethke Elshtain, Owen Fiss, Richard A. Posner, Jeremy Waldron, Yale University Press, 2003, p79.

على المرء أن يُخاطر، ويمكنه فعل ذلك، مع أنه، كما قال كانط، لن يكون أحد واثقًا مُسبقًا من أنه سيفعل. أذكر حالة اغتيال هتلر هذه: لقد تساءلت طويلًا: هل كنت سأمتلك الشجاعة لفعل ذلك؟ ربما لا. بدا لي خطأً فادحًا من المقاومة الألمانية أنهم تورطوا في هواجس أخلاقية ضد الاغتيال أو ضد قتل رئيس الدولة، بينما كانت جرائم هتلر أفظع من أن تسمح بمثل هذه التحفظات. كان شتاوفنبرغ[17] محقًّا في قوله إنَّ تلك المخاوف لا وزن لها أمام الشر العظيم الذي جسّده هتلر، اللهم إلا إذا كانت هناك مخاوف من نوع آخر لم يرغبوا في ذكرها.

سمات الديانة المعقولة

من بين النصوص التي قرأتها، كان أكثرها تأثيرًا عليّ كتابات بودان[18] في «الندوة السباعية»[19]. ثلاثة أمور لافتة في فكر بودان: أولها أنه ظل كاثوليكيًّا مؤمنًا حتى النهاية، وطلب أن يُدفن كاثوليكيًّا، وكان عضوًا بارزًا في جماعة السياسيين[20]. لم يصل إلى التسامح عبر رفض دينه، مثل سبينوزا، بل رأى التسامح انعكاسًا لانسجام الطبيعة كما خلقها الإله. ومع أنه أدرك أهميته السياسية، إلا أن اقتناعه بالتسامح كان دينيا بالدرجة الأولى[21].

أما الأمر الثاني، فهو أنّه رأى أن مهاجمة دين شخص ما خطأ، ما لم يقترن بتقديم بديل أفضل. في ختام »الندوة"، اتفق المتحدثون على التوقف عن محاولة دحض معتقدات بعضهم، والاكتفاء

(17) كلاوس فون شتاوفنبرغ (1907-1944) كولونيل ألماني زمن الرايخ الثالث، اشتهر بقيادته لمحاولة فاشلة لاغتيال هتلر انتهت بإعدامه. وقد أعادت هوليود إحياء ذكرى شجاعة هذا الضابط من خلال فيلم valkyrie الصادر سنة 2008. (المترجم)

(18) جون بودان (1530-1596)، قانوني ومفكر سياسي فرنسي، من أشهر أعماله الكتب الستة للجمهورية (Les six livres de la République).

(19) Jean Bodin, Colloquium of the Seven about Secrets of the Sublime, trans. Marion Leathers Daniels Kuntz (Princeton: Princeton University Press, 1975).

(20) جماعة من المفكرين والسياسيين والقانونيين الفرنسيين من أصول كاثوليكية وبروتستانتية، برزوا منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ومن أبرزهم جون بودان وميشال لوبيتال والكاردينال ريشيليو، دعوا إلى التسامح وسعوا إلى تحقيق السلم الأهلي بين الكاثوليك والبروتستانت، تحقيقًا للمصلحة العليا للدولة وحفاظًا على وحدتها واستقرارها. وسموا بالسياسيين لأنّ دافعهم إلى المطالبة بالتسامح كان دافعًا سياسيًّا بالأساس، وليس دعوة تنم عن تثمين أخلاقي ولاهوتي للتسامح والتعددية الدينية في حد ذاتها، دون أن ينفي ذلك بالضرورة وجود بواعث دينية تفاعلت مع الدواعي السياسية كما هو حال جون بودان.

لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى الباب السادس من كتاب تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، لجوزيف لوكلير، ترجمة جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، 2009. (المترجم)

(21) هي الأطروحة نفسها التي ينتصر لها جوزيف لوكلير حيث يؤرخ لتحول جون بودان من أطروحة التسامح بدافع سياسي (السلم الأهلي) مع تشوفه إلى تحقيق **الوحدة الدينية** باعتبارها **المثال** الواجب تحقيقه وهي الأطروحة الواردة في الجمهورية، إلى أطروحة تنافح عن الحرية الدينية –ما عدا الإلحاد- من زاوية لاهوتية مبدئية دون التخلي عن فائدته السياسية. جوزيف لوكلير، تاريخ التسامح في عصر الإصلاح، ص.742 –748. (المترجم)

بطرحها بصدق لفهمها في أفضل صورة ممكنة. وهكذا، يصبح الحوار الودي والتبادل المتفهم جزءًا من الحياة الدينية، لا الجدل والصراع.

وأخيرًا، يضع بودان حدودًا للأديان المقبولة، أبرزها أن يكون التسامح مبدأ دينيًّا داخليًّا. ومن هنا، يمكن القول مع الليبرالية السياسية[22] إن أديان المتحاورين السبعة كلها معقولة[23]، وتقبل فكرة «العقل العمومي» في المجال السياسي. وجزء من المغزى المستفاد من هذا أنَّه في الغالب ما لا يكون دين المرء أفضل أو أسوأ من شخصيته نفسها، والواجب دائما افتراض فكرة المعقولية، أو ما يناظرها.

مسوغات تجاوز التسامح الكلاسيكي

لكن الإلحاد كان الرأي الوحيد الذي لم يقبله بودان. فهو لا يراه فقط إنكارًا لوجود الإله، بل أيضًا رفضًا لمبادئ الحق والعدالة[24]. اعتقَدَ (بودان) أن الناس لن يحترموا العدل إلا إذا خافوا العقاب الإلهي. وهكذا، كان يرى أن إنكار الإله يقود إلى عالم اجتماعي بغيض لا رادع فيه سوى المصلحة ولا حد يتجاوزها[25]. غير أنَّ هذه الفرضية، الشائعة في عصره، ليست لازمة. فإذا قلنا إنَّ القيم الأخلاقية والسياسية قائمة في «عقل الإله» لا في إرادته، فإنَّ إنكار وجود الإله يعني إنكار العقوبات الإلهية فقط، لا إنكار القيم نفسها.

علينا أن نفكر في كيفية تصور العلاقة بين عقل الإله والقيم الأخلاقية والسياسية. ربما يمكننا القول: إن عقل الإله وعقلنا متشابهان في بعض النواحي ومختلفان في نواحٍ أخرى. يختلف عقل الإله في أنَّ قدراته تفوق قدراتنا بكثير: فهو يستوعب ويرى جميع المعلومات والاستدلالات الممكنة دفعة

(22) أي الليبرالية السياسية كما يتبناها رولز.

(23) الأديان المعقولة هي جزء مما يسميه رولز بالمذاهب الشاملة المعقولة، وتتميز بقبولها للتصور السياسي للعدالة الليبرالية، وقدرتها على استبطانه وتسويغه من داخل مذهبها الشمولي، كما يعمل الأشخاص المعتنقون لهذه المذاهب المعقولة على مخاطبة مواطنين آخرين أحرار ومتساوين، يعتنقون تصورات مختلفة للخير من خلال حجج يمكنهم فهمها والقبول بها على نحو معقول. وهو ما يصطلح عليه رولز بواجب التمدن Duty of Civility الذي يفرضه العقل العمومي Public Reason. (المترجم)

انظر:

John Rawls, Political Liberalism , Expanded Edition, Columbia University Press, Third Edition 2005, p 59-66 ...pp.

(24) سيدافع جون لوك (البروتستانتي) عن الموقف نفسه بعد ذلك، لكن في المقابل سيكون بيير بايل الذي تنقل بين البروتستانتية والكاثوليكية، من المفكرين الأوائل في الحقبة الحديثة (قبل كانط) الذين رفضوا إقامة تلازم ضروري وحصري بين الدين والأخلاق، داعيًا إلى علاقة جديدة بينهما قوامها تبعية الدين للأخلاق حيث معيار الدين الخَيّر هو مدى تطابق مضامينه مع القيم الإنسانية المستقلة عنه والحاكمة عليه.

(25) يستعمل رولز في متن مقالته مفهومي التكتيك والإستراتيجية، لكن ارتأينا نقلهما إلى اللسان العربي من خلال عبارة المصلحة بوصفها دافعا وحَدّا، لأنها تحفظ المعنى المراد من المفهومين في السياق الأصلي الذي وردت فيه داخل المقالة، وتلاءم السياق المترجم إليه.

واحدة؛ على سبيل المثال، يدرك دفعة واحدة جميع العلاقات بين الحقائق المتعلقة بالأعداد. يعلم الإله فورًا أن نظرية فيرما Fermat[26] صحيحة، ولا يحتاج إلى عناء ابتكار رياضيات جديدة كما نفعل نحن لإثباتها. ومع ذلك، أعتقد أن عقل الإله هو نفسه عقلنا من حيث أنه يعترف بصحة الاستدلالات والحقائق نفسها التي نعترف بصحتها وصدقها. علاوة على ذلك، يمكننا أن نفترض أن عقل الإله مُتسق مع عقلنا؛ بقدر ما نستطيع فهم قضية ما، فإن فكرة الإله عن المعقولية وفكرتنا تُعطيان الحكم نفسه. دعونا نقبل هذه الملاحظات على أنها سليمة بما يكفي. الآن، إذا أنكرنا وجود الإله، فإننا ننكر وجود عقل ذي قدرات إلهية، ولكن هل ننكر سلامة محتوى العقل؟ هناك انقسام كبير حول هذه النقطة. من جهتي، لا أرى كيف يمكن أن يتأثر محتوى العقل وصلاحيته بوجود الإله من عدمه، معتبرين الإله كائنًا ذا إرادة. لا يمكننا إنكار صحة تلك الاستدلالات أو حقيقة الحقائق المُعترف بصحتها. إنكار ذلك يفضي إلى العبث والهذيان.

لنفترض إذن أن الاستدلال في أبسط أشكاله ثابت فيما يتعلق بمختلف أنواع الكائنات التي تمارسه. ومِن ثم، فإن وجود الإله، مهما عظُمت القدرات الإلهية، لا يُحدد القواعد الأساسية للعقل. علاوة على ذلك، يعتمد محتوى أحكام العقل العملي على الحقائق الاجتماعية حول كيفية ارتباط البشر في المجتمع ببعضهم البعض. سيرتبط العقل العملي الإلهي أيضًا بهذه الحقائق، تمامًا كما يفعل عقلنا؛ وهذا صحيح حتى لو كانت هذه الحقائق نفسها نتيجة خلق الإله. فبالنظر إلى هذه الحقائق كما هي بلا شك في عالمنا الاجتماعي، فإن الأحكام الأساسية للمعقولية يجب أن تكون هي نفسها، سواءً صدرت عن عقل الإله أو عن عقلنا. هذا المحتوى الثابت للمعقولية - والذي بدونه ينهار فكرنا - لا يسمح بخلاف ذلك، مهما بدا من التّقوى نسبة كل شيء إلى الإرادة الإلهية.

لهذا، أوافق بودان في أنَّ الإلحاد كارثة[27]، لكن اللاإلهية[28] ليست خطرًا سياسيًّا، بل يمكن أن تنسجم مع الإيمان. وحتى الإلحاد يجب التسامح معه، إذ إن ما يُعاقَب عليه في الدين ليس المعتقدات، بل الأفعال.

(26) بيير دي فيرما رياضي فرنسي (1601-1665). (المترجم)

(27) أي الإلحاد الذي ينفي قيم الحق والعدالة والتعاون الصادق. (المترجم)

(28) اللاإلهي لا يؤمن بوجود إله، ولكنه، على عكس الملحد، يظل منفتحًا على فكرة وجود قوى روحية أو خارقة للطبيعة في العالم. قد يؤكد وجود قوة عليا لكنها لا ترادف الإله الشخصي كما نجده مثلا في الديانات التوحيدية، يُنعت هذا التصور أحيانا بالإلحاد الناعم في مقابل الإلحاد القوي الذي ينكر حتى وجود هذا النوع من القوة. (المترجم)